نظرية الحتمية القيمية في الإعلام
قراءة في سؤال المشروعية

أ. محمد البشير بن طبة
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

لا تزال في الحقيقة مقاربة " أ.د عزي عبد الرحمن" الموسومة بالحتمية القيمية في الإعلام، مثار جدل و نقاش كبيرين في أوساط الأكاديميين والدارسين والطلبة، ولا أدل على ذلك الندوة الوطنية الأولى حول الحتمية القيمية في الإعلام، التي نظمها قسم الدعوة و الإعلام والاتصال بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة وما أثارته من استشكالات نظرية وتساؤلات مطولة كثير منها يتعلق بجوهر هذه النظرية، وروحها أو ما يمكن وصفه " **بسؤال المشروعية** ".

و لست أزعم من خلال هذه الورقة أن أقدم إجابات أو حلول جاهزة لما أثير، بقدر ما أحاول بجهدي المتواضع إعادة استجماع و قراءة ما أثير في جانب ما اصطلحنا عليه سلفا " بسؤال المشروعية " و في ضوء بعد أساسي، أرى من الأهمية بمكان إبرازه لاستجلاء معالم هذه المقاربة النظرية القيمية ألا و هو الرؤية أو المنظور في حد ذاته :

لقد استشكل كثير من الباحثين البعد الحضاري لهذه المقاربة النظرية-و في جانب منه ما يمكن تسميته بالطرح القيمي- كبديل متميز من جهة، و تصور معرفي متكامل في بناءه و أطره المعرفية و المنهجية من جهة ثانية، فالنظرية وإن رفعت شعار الأسلمة و/أو التأصيل فقد سيقت في واقع الأمر انطلاقا من مسلمات، و افتراضات نظرية، بل وظفت أدوات و مفاهيم... هي في الأصل وليدة المدرسة الغربية - الظاهرتية، التفاعلات الرمزية، البنيوية ....- الخ.

وقد حدا بعضهم-عن قصد أو غير قصد- اعتبار نظرية الحتمية القيمية جهد قائم على إسقاط تعسفي و قسري لنصوص الوحي، يندرج في سياق مسيرة السبعينيات الموسومة بمبادرة أسلمة العلوم، و اعتذر بعضهم أهمية الحديث عن القيمة في الزمن اللاقيمة أصلا.

بداية يقتضي منا الطرح المنهجي التذكير ببعض الاحترازات -المهمة- ونحن نناقش هذه الاستشكالات المعرفية لهذا الطرح النظري المميز.

إن الباحثين في الدراسات الاجتماعية عموما و الإعلامية الاتصالية منها على وجه الخصوص يقرون سلفا أن التراث البحثي المتاح حتى الآن لا يعبر إلا عن جزء بسيط جدا من عملية معقدة للغاية وهم يضيفون إلى ذلك ما يفيد بأن الدراسات الامبريقية النوعية هي في أمس الحاجة إلى عملتي تقويم واستكمال بواسطة الاستعانة بإطار مرجعي أكثر اتساقا يضع في اعتباره الطبيعة الإنسانية لعملية التغير الاجتماعي الواسعة من جهة و خصوصية الأنماط المعرفية والحيزات الحضارية من جهة أخرى.

لذلك المتأمل في التراث الإعلامي المكتوب في فترة الخمسينيات و أوائل الستينيات يلمح أنه اتخذ لنفسه نموذجا محددا، فاتخذ صيغة البحث الشهيرة عند لازويل، والواقع أن صيغة لازويل ليست أكثر من نموذج إمبريقي يستخدم كوسيلة لتحليل الآثار ذات المدى القصير .

ثم إن فكرة عدم ارتباط العلوم الاجتماعية- ومنها علوم الإعلام والاتصال- بالذاتية فكرة زائفة ترجع إلى التاريخ الثقافي الغربي الوسيط الذي أفرز عدة مذاهب فلسفية مناهضة للكنيسة و من هذه المذاهب الوضعية" التي دعت إلى تحقيق الحياد القيمي و الموضوعية العلمية في مجال الإنسانيات. وقد انتقد بعض الغربيين أنفسهم هذا الطرح معتبرين إياه خرافة على حد تعبير سون سايتي "إن خرافة العلم الحيادي انتهت "، أو ليفي لوبلوند " لا يمكن لأي نبتة مفيدة أن تنمو وتزدهر في جميع المناطق الجغرافية و الظروف المناخية ...."[1].

ولكن هذا التصور الذي هو من خصوصيات الغرب لا يمكن اعتباره مشكلة كونية تفرض نفسها على ثقافات ذات خصوصية مغايرة في تصورها الفكري.

لقد أصبح بديهيا أن الأنساق الفكرية و المنطلقات النظرية ليست واحدة عند كل المجتمعات وفي كل الأزمنة و مختلف المرجعيات، وأصبح شائعا في ذات الوقت هيمنة الموشور الحضاري الغربي المؤدلج والمتناقض على غالبها، فهي متحيزة فكريا، تاريخيا، اثنيا.... وبالتالي غير صالحة بأي حال من الأحوال للتعميم. و لا أحد من شأنه إلزامنا بهذه النظرية أو تلك، فهي افتراضات وقوالب نظرية ظنية الدلالة - بمفهوم علماء الأصول- بل إن مثلها لا يعدو أن يعتبر من قبيل ميتافيزيقا العلوم على حد تعبير الأستاذ فضيل دليو[2]

من هذه الزاوية تشكل مقاربة الحتمية القيمية في الإعلام، عملية يستبطن فيها الأستاذ

---

[1] فضيل دليو : " العلوم الإنسانية بين العالمية والخصوصية (مقاربة نقدية)" جامعة قسنطينة ، محاضرة غير منشورة.

[2] فضيل دليو : " منهجية البحث الاجتماعي بين الاستنباط والاستقراء" جامعة قسنطينة ، محاضرة غير منشورة

عزى أناه في التعامل مع تراثه، وتراث الآخرين ولا شك أنها توفيقة ربانية صبغت فكره وذللت له المشارب و هيأت له السبل ليقرأ الظاهرة الإعلامية و الاتصالية قراءة " **طباقية** " كما يسميها المفكر العظيم الفلسطيني إدوارد سعيد[3] تتجاوز ثنائية الرفض المطلق أو التسليم التام، فالآخر بداية ليس هو "المطلق " و ليس هو " الكل " كما انه ليس هو " المسلم به "[4].

و لعلي أستسمح صاحبها لأفترض بداية بناءا أو معلما أرى من الأهمية بمكان أن يتحرك في سياقه كل المنشغلون بالقراءة أو التعرف، أو الإثرا ء من باب أولى- **تبريرا، تأكيدا، نفيا**- لهذه المقاربة النظرية القيمية، وهو بناء تضبطه في تصوري ثلاثة افتراضات أساسية:

1- معرفة بناء الرؤية الكونية الإسلامية، وذلك من خلال :

-التعرف على النظام المعرفي الإسلامي(خصائصه، ضوابطه، مقاصده)

- التحكم في المنهجية الإسلامية.

2- ضبط منهجية التعامل مع الأصول (القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة).

3- ضبط منهجية التعامل مع التراث الإسلامي أولا ، ثم التراث الإنساني بعد ذلك.

يستتبع كل ذلك ضرورة فهم الواقع بكل تعقيداته.لذلك و نحن نتأمل جوهر هذه النظرية، نلمس حقيقة أنها ليست بديلا عن نظريات الاتصال الغربية

---

[3] ادوارد سعيد : **تعقيبات على الاستشراق** . ط1،(تر) صبحي حديدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1997.ص،143.

[4] ينظر بتمعن نقد الأستاذ الدكتور عزي لمفهوم الرأي العام ، أو تحليل المضمون في كتابه : **الفكر الاجتماعي المعاصر والظاهرة الاعلامية الاتصالية بعض الابعاد الحضارية** . ط1، دار الأمة للطباعة والنشر و التوزيع، الجزائر، 1995،

المختلفة بقدر ما هي استدراك ثقافي، امتلك تميزه من تميز مرجعيته، و أصالته من أصالتها، و لغته من لغتها.

لقد سأل الدكتور عبد الرحمن عزي أناه – و هو المسلم الأصيل- بتأمل عميق لهذه الثقافة الإعلامية و التواصلية السائدة، والمهيمنة، و السالبة للثقافة، والهوية ، و التي عملت على تقليص و تضاؤل بعض المؤسسات الاجتماعية التاريخية التي كانت تقوم بعملية التثقيف و المثاقفة كالعائلة والمدرسة ... .بل غدت تعيد رسم الشعوب و بنائها و هيكلتها و حتى ذوقها بعيدا عن كل المؤثرات الثقافية الأصيلة و المحددات التاريخية الأولى.

فأشار عليه بسؤال " القيمة " (كرأسمال رمزي جديد مرتبط بقيم المجتمع ومعانيه الثقافية، التي تشكل هويته وانتمائه إلى بيئة حضارية ذات أبعاد إنسانية وعالمية)، و هو نفسه السؤال الذي ارتضاه المولى سبحانه وتعالى لعباده وأصفيائه لأن يفسر في ضوئه الوجود الإنساني بكل أبعاده، و ينهل منه الأخيار إنسانية الإنسان على نحو متباين و مغاير لأي مخلوق آخر في هذا الوجود. قال الله سبحانه و تعالى فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الله الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم و لكن أكثر الناس لا يعلمون [5].

" فطرة الله تعالى التي فطر الناس عليها وطبيعة هذا الدين كلاهما من صنع الله تعالى، وكلاهما موافق لناموس الوجود، و كلاهما متناسق مع الآخر في طبيعته و اتجاهه، والله الذي خلق القلب البشري هو الذي أنزل إليه هذا الدين[مصدر القيم] ليحكمه و يصرفه و يطب له من المرض ويقومه من الانحراف"[6].

---

[5] سورة الروم الآية : 30.

[6] سيد قطب : في ضلال القرآن .ط 15 ، المجلد الخامس ،ج 19-20 ، دار الشروق، مصر،1988، ص 2767.

من هذا المنطلق ربط الأستاذ عزي مفهوم "الثقافة" كعالم معيش و مصدر هوية وانتماء وصراع ... بمفهوم " الاتصال " كعالم رمزي تتشابك فيه العالمية والمحلية، و جعل "الثقافة" سلم يمثل مستواه الأعلى القيم التي يكون مصدرها الأساس هو الدين، فالإنسان ليس مبدعا للقيم بل هو وعاء وقالب تتجسد فيه القيم، و عليه فالإنتاج الثقافي الإعلامي، و النخبة الوسيطة الرمزية، والجمهور الذي يتأسس في شكل مخيال إعلامي[7] .... هذه البنى مجتمعة كانت أو منفردة تبقى في منظور هذه المقاربة القيمية يعلو أداؤها صعودا أو هبوطا كلما اقتربت أو ابتعدت عن القيمة. و على سبيل المثال يطلق الأستاذ عزي مقولة " **موت المعنى** " في سياق هيمنة " **النص الغريزي** " الذي ينزل بالإنسان إلى مرتبة " **البهيمية** " كأحد أطراف هذه المعادلة هبوطا[8]، مقابل الصعود الذي يفترض أن يقوم في حال استرجاع مكانة **الرأسمال القيمي** .

لقد أدرك صاحب النظرية جيدا جوهر الإشكال وهو يمارس التنظير برؤية حضارية متميزة ناقدة، فالمعارف التي لا تتفق مع عناصر "الأنا" لا يمكن أن تقدم في الأمر شيئ، بل إنها قد تتحول إلى عبء و حمل زائد في طريق التنمية، و هي الحقيقة نفسها التي يؤكدها سلفه مالك بن نبي - رحمة الله عليه -وهو ينتقد في الشأن السياسي لبعض البلدان الإفريقية الآسيوية حيث قرر" أن علاج أي مشكلة يرتبط بعوامل زمنية نفسية ناتجة عن فكرة معينة، تؤرخ من ميلادها

---

[7] المخيال في نظر الاستاذ عزي حالة تتضمن المشاعر النفسية و الاجتماعية التي تتكون بفعل ما يتعرض له الجمهور العربي و المسلم من محتويات وسائل الاتصال من جهة وبفعل ما يحمله هذا الجمهور من مخزون تراثي و أسطوري من جهة أخرى ينظر عزي عبد الرحمن : **الفكر الاجتماعي المعاصر والظاهرة الاعلامية الاتصالية بعض الابعاد الحضارية** . مرجع سابق،ص 154.

[8] ينظر عزي عبد الرحمن و آخرون : **ثورة الصورة المشهد الإعلامي وفضاء الواقع** . مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1 بيروت : شباط فبراير 2008، ص،ص 108-113.

عمليات التطور الاجتماعي في حدود الدورة التي ندرسها، فالفرق شاسع بين مشاكل ندرسها في إطار الدورة الزمنية الغربية، ومشاكل أخرى تولدت في نطاق الدورة الإسلامية "[9] هذا الخلل إن ما تم واستكملت حلقاته أنتج مديونية حضارية، و ضريبة تدفعها الأمة في مجموعها من وقتها، وجهدها، ومالها، وربما دينها و تلك هي الطامة.

إن الحاجة إلى عمليات تأسيس و تنظير تستبطن المعادلة الدينية العربية الإسلامية -بخصوصيتها القيمية والحضارية و العقيدية - ملحة اليوم أكثر من أي وقت مضى، خاصة مع هذا الخلط و التسيب الثقافي الرهيب الذي التزمته المؤسسة الإعلامية و الثقافية في منطقتنا، موازاة مع ركض المتلقي -العربي المسلم – خلف النص الغريزي القائم على تسويق الجسد،و إثارة الشهوة وإشاعة الفاحشة أحيانا.

و الحاصل أن المقاربات النظرية الغربية الحديثة و حتى التقليدية، قدمت كل رهاناتها للإنتاج الصناعي و الارتقاء المادي، وحين تتناقص إمكانات النمو المادي فإن الإنسان سوف يلجأ لا محالة من جديد إلى سؤال – القيمة – ليستمد منها طاقة الإبداع و التكيف مع الظروف الجديدة، فالقاعدة القيمية هي التي تحمل الأثقال التي تتولد من طبيعة الحياة المادية والاجتماعية، وانتكاسات الحضارة في ميادين الحياة المختلفة. كما أنها المعيار الحقيقي للتطور والازدهار و محدوديتها و تراجعها معيار تخلف و انحطاط.

---

[9] مالك بن نبي : **شروط النهضة** .دمشق، دار الفكر،ط 1969،3، ص 70-71